أم ياسمين

قصة بقلم : د. عدنان رؤوف

كانت ترفع العصير الى فمها وهي تقول بصوتها الناعم :
هوخ فاين !

كانت تضحك وتمط صوتها ، ترمض بعينيها الطفوليتين العذبتين . اعادت الكأس بيدها الصغيرة الطرية الى الطاولة ، راحت تتطلع في وجهه . كانت قسمات وجهها المثلثي الوسيم تبعث في نفسه مشاعر الحنان والعطف . عيناها السوداوان تقذفان به في مدينة بعيدة نائية . ود لو يأخذها معه الى مدينته الحالمة . قبلها في وجهها مرتين ، تلمس بشرتها بخشوع . اصابعها الصغيرة تمسك يده بوداعة سألته :

ـ أونكيل ، متى تعود أمي ؟

هو ايضا لا يدري متى تعود امها ، قال بصوت ابوي :

ـ قريبا جدا .

رفعت الكأس الى فمها وهي تضحك :

ـ هوخ فاين .

ردد معها دون ارادته والمرح يملأ قلبه :

ـ هوخ فاين .

احتست ما تبقى في الكأس من عصير . طلب لها ـ رغم نقوده القليلة ـ كأسا اخرى . كان يشعر ببهجة كبيرة وهو يردد معها كلمة « هوخ فاين » رغم جهله لمعناها . حاول تفسير الكلمة الى لغته دون جدوى . فهو يسمعها لاول مرة في حياته ـ لم يعتد اخوته الصغار ، ولا اولاد محلته في بلاده شرب عصير التفاح من كؤوس زجاجية . كان هو ذاته يحتسي الماء البارد من صفائح ، كما انه لم يجلس على الكراسي في الكازينوات مثلها .

حاول معرفة معنى الكلمة منها ، سألها وهو يهمس بأذنها :

ـ قولي رجاء .. ما هو معنى فاين ؟

اغرقت الصغيرة بالضحك وهي تنظر اليه بوداعة ، وترفع كأسها وتغمزه بعينيها السوداوين الجميلتين .. قالت :

ـ هوخ اونكيل .

خبل له انه يعرف معنى الكلمة ، قال مع نفسه ربما تعني « تعيش يا عمي » . ما لبث ان اصابته عدوى الضحك فأخذ يضحك معها بصوت عال كالمجنون . شاهد في عينيها اللوزريتين البريئتين حزنا عميقا . كف عن ضحكه الجنوني. ان الوقت سيكون متأخرا على الصغيرة .

صمتت الطفلة فجأة ، لاحظ الخوف في وجهها ، يبدو انها فزعت من ضحكته غير المألوفة ، خفض بصره نحو الارض ، كي تهدأ نفسها ، ادرك لاول مرة ان الاطفال اكثر حساسية من الكبار : سألته :

ـ متى تعود امي ؟

وجهها الوديع يتطلع اليه بالحاح ، انها تريد امها ، لا تريده هو ، انكمشت على نفسها . قال لها وهو يبتسم لها ويمسح شعرها الاشقر القصير بيده :

ـ هوخ اونكيل .

لم تضحك ، لم تحول نظرها عنه ، كانت تنظر اليه بالحاح . ارتسم الحزن على وجهها . سألها :

ـ ماذا بك ياسمين ... هل تريدين العودة الى البيت ؟

ـ كلا .. اريد امي .

خطر له ان يسمح لها بالوقوف عند باب المقهى .. قال لها ان تنتظر هناك وتتفرج على الشارع والسيارات . حتى تعود امها ، كان يحلم انها ستعود اليه حينما تشعر بالتعب . احتست ياسمين ما تبقى من الكأس الثانية مرة واحدة ، عاد الفرح الطفولي اليها ، وضعت الكأس على الطاولة وقفزت الى الارض مسرعة نحو الشارع ، ولكنها عادت في الحال وكأنها نسيت شيئا هاما . قالت ضاحكة :

ـ هوخ فاين ، هوخ اونكيل .

هتف قائلا :

ـ احبك يا ياسمين ... احبك فوق كل شيء يا صغيرتي .

قالت وهي تقفز الى الارض :

ـ انا ايضا اونكيل ... انا احبك ايضا .

جرت مسرعة نحو باب المقهى . لاحظ عيون الآخرين تبتسم لحبهما الغريب ، حب الاجنبي لطفلة من ديارهم الثلجية الباردة . هز كتفيه العريضتين بلا اكتراث . راح يفكر مع نفسه . ان الاطفال غالبا ما يشعرون بالحرية

عند امهاتهم . كان هو لا يتجرأ على الظهور امام والده الجبار . يذكر الآن ضربه المبرح القاسي والمعارك الدموية بين العوائل في محلته يشارك بها برغبة واعتزاز . لكن ما ان توفي والده ، حتى هجر بلاده دون التفكير بالعودة . حملته الصدفة وحدها على مركبها السحري العجيب . سألته (أم ياسمين) مرة وهو يأكل شوربة عدس معها : « أتؤمن بأله يسير الكون .. أتؤمن بقاعدة او قانون يسير الحياة ؟ » فرح من اعماقه لاهتمامها به وقد قبلها من جبهتها العريضة حينما اضافت قائلة :

ـ لا اعتقد انك تؤمن بالحياة ولا بالوجود .

اضافت متشجعة بمزاجه المرح قائلة :

ـ عليك ان تؤمن بشيء ما ... ان تتزوج وتنجب الاطفال وتخلد اسمك .

ضحك ضحكته الجنونية آنذاك ففزعت مثل ابنتها ، وسألها بعفوية مطلقة عن مهنة ابي ياسمين .

أجابت ، وكأنها كانت تعاني من ألم شديد في احشائها :

ـ ياسمين طفلة الحياة .

ولم يدرك معنى قولها . حدث ذلك في اواخر الخريف الماضي على شاطىء نهر طويل اخضر ذكره دائما ، بالنهر الخالد في مدينته الكبيرة . وقد اشتد البرد وتساقطت الاوراق الصفراء ، كان يمشي امامها ببطء . قالت له من الخلف « انا ايضا ابنة الحياة » . لم يخف فضوله الشرقي، تساءل وهو يقف وجها لوجه امامها :

« هل يعني طفل الحياة شيئا خاصا عندكم ؟ ... ارجو المعذرة » . كانت قامته الطويلة تحجب اشعة الشمس الفضية عن عينيها الخضراوين الجميلتين ووجهها الاشقر .

اجابت وهي تنظر الى السماء الزرقاء النقية .

ـ هذا يعني شيئا كبيرا لي ولياسمين على الاقل ... ياسمين لا تعرف اباها ، ولا انا ايضا .

ـ تقصدين ، أنت ايضا لا تعرفين والدك ؟

ـ أنا لا اقصد . لنكف رجاء عن الخوض في هذا الموضوع .

اطلقت ضحكة قصيرة ، راحت تمشي هي امامه تؤرجح حقيبتها القهوائية الكبيرة ، تعبث بالاوراق الخريفية اليابسة ، استبد به شعور غامض ، انه يحب هذا الصنف من النساء ، اقترب منها ، قبلها في فمها ، شاهد دمعة شفيفة تنساب عبر رموشها السوداء الطويلة ، تمر في زاوية انفها الحلو لتستقر عند ذقنها العريض . أجالت بعينيها قلقة في المكان . قالت نظراتها كلا ان المكان غير صالح لذلك . امسكت بيده بانفعال :

ـ عليك ان تفكر .. أن تفكر كثيرا .. ان كل شيء وكل شخص يمثل ظاهرة بذاتها .. ولذلك فان كل شيء في الوجود جدير بالاحترام والتقدير .

واضافت وهي تضع ذراعها الايسر على كتفه :

ـ ان أحسن لحظات حياتي هي اللحظات التي ترغمني فيها الجوانب الداكنة في الوجود على التفكير .

ـ تقصدين حينما ترغمني على البكاء .

ـ كلا ، لم ابك الا نادرا في حياتي ، ولكن تصور الموضوع هكذا ، مجرد مثل من الامثال ... كنت سطحية في تفكيري وتصرفاتي ، حتى مجيء ياسمين الى الدنيا ، بعدها حينما ارغمت على متابعة الطريق وحدي مع الطفلة، تدهورت صحتي لأني لم استطع في بادىء الامر تصور حياتي وحيدة مع الطفلة دون والدها ، لم استطع العودة الى حالتي الاصلية قبل ولادتها .. تغيرت مشاعري كليا ، افكر مرات عديدة قبل ان اخطو خطوة جديدة ، ومن هذه النقطة بالذات بدأت حياتي الحقيقية . كانت الشمس في اقصى الشمال من المدينة .

طوقها هو ايضا بذراعه اليمنى ، استطردت قائلة :

ـ لذلك فانه من الغباء اتخاذ قرار العودة الى بلادك بدافع عاطفي فقط ، او أن تغير مكانك الحالي لمجرد أنه لم يعجبك .

« في الحياة لحظات عسيرة يفقد المرء فيها القدرة على التعبير او التقرير »

قال وهو يلف معطفه النيلي جيدا حول جسده :

ـ الحقيقة ، لا اريد السفر ... لكنني لا اريد البقاء هنا ايضا ... انني حائر .

أحس وكأنها جزء من كيانه . تنسم رائحة شعرها الكستنائي . فكر مع نفسه :

انه من الصعب فهم مشاعرها وأفكارها ، فهي جالت نصف الدنيا مع امها ، باعت صورها الزيتية والمائية على ارصفة الموانىء . وقف متعجبا لألوانها الصافية وخطوطها العميقة . يبدو أنه لن يتمكن من معرفة التعابير المتناقضة في وجهها . انه فزع من قوة الشباب ووداعة الطفولة ، حاول تقدير عمرها ، كاد يسألها . لكنها ابتسمت وهي تنظر نحو الارض ، رفعت رأسها وهي تقول :

ـ لقد كتبت قصة حولك ... حول شخصيتك الغامضة .

ـ حولي ؟

ـ حرت في العنوان ... الا تجد « اسماعيل » اسما جميلا لها ؟

اطلق ضحكته العالية ، لاحظ الفزع مرة في عينيها وقسماتها . قال :

ـ لنذهب الى غرفتك ، ولنتطلع مرة اخرى الى صورة الرجل الطويل العاري بوجهه المتجهم وهو ينزل قمة الجبل .

خيم الظلام على الشوارع الرمادية والبيوت القرميدية الحمراء ، اشعلت المخازن اضواءها ، أخذ المارة يسرعون نحو بيوتهم ، كان ضجيج السيارات والغازات القاتلة تبعث الاشمئزاز في النفس .

ـ هل سنبحث عن عنوان جديد لها ؟

ـ « ام ياسمين » ... هذا اجمل عنوان لقصة تربطنا معا .

ضحكت هي ايضا ، ضحكة عذبة تليق بأنثى جذابة مثلها . حينما دخلا البيت ، لمح ظلا من العبوس والضجر في وجه امها . كانت ياسمين تنتظر في فراشها ايضا . اشارت عليه بالدخول الى الغرفة الجانبية قرب الباب الخارجي وأن ينتظر . عادت بعد ربع ساعة ، غرق في نوم عميق ، حلم وكأنه يطير على دراجة هوائية في السماء السابعة . استيقظ على صفير خفيف قرب اذنه اليسرى ، ايقظته اخيرا ، تساءل (هل كنت تصفرين في اذني) ابتسمت بمرح وقالت « كلا . لم اكن انا ، بل الريح هي التي فعلت ذلك » .

قال :

ـ اتقصدين أنك تحولت الى ريح مغنية توقظ المرهقين من نومهم العميق ، اليس كذلك ؟

غرقا في الضحك .

لم يكن هناك ما ينغص عليهما صفوهما . جلسا متجاورين على الفراش العريض . اخذا يتجاذبان الحديث كمخلوقين خالدين ، حكى لها وهو يجول بنظره في ارجاء الغرفة الصفراء بضوئها الرمادي الداكن ، اساطيره الشرقية التي تعبق بالروائح القوية والالوان الصارخة . كانت الغرفة تزيد من توغلهما في عوالم ساحرة دافئة . اسدلت الستائر الزرقاء ، اشعل هو الشمعة على المنضدة الصغيرة جنبه . أخذ ينقر بأصبعه على الطاولة الخشبية المدورة امامه . راح يتلمس اصابع يدها الطرية ، الخواتم الذهبية في اصابعها كانت تثيره .

قالت :

ـ الرجل الغامض يعجبني .

لم يخرج عن صمته ، تساءلت بصوتها المبحوح الذي يحبه :

ـ انك رجل غامض وبسيط في نفس الوقت ... هذا ما يدفعني على الاكثر الى حبك .

واصل حركته القلقة وهو ينظر الى صورة الرجل العاري ... انه لا يحب التحدث عن نفسه ، غير مجرى الحديث بضربة واحدة :

ـ اتدرين ... كنت اليوم في مقهى الجامعة وقد جلست صدفة على مائدة كان يجلس عليها انكليزيان وسويدي وثلاث فتيات أخريات من شيكوسلوفاكيا ، وقد احتسيت القهوة وأنا اصغي اليهم ، تحدثوا في شتى المواضيع . ذكر السويدي اشياء لا يصدقها العقل حول الجنس والمخدرات ونسبة الانتحارات العالية . ايده الانكليزيان الا ان الشيكيات لم يشاركن في الحديث مطلقا .

قسمات وجهها الهادئة الواضحة اشرقت بطيف ابتسامة متحفظة على شفتيها الممتلئتين الشهيتين .

ـ وصفوا كيف حدث هذا دون ذكر الاسباب ... الحقيقة لم اشغل فكري سابقا بمثل هذه المسائل . اتخذ وجهه تعبيرا جديا وهو يضرب على الطاولة بأصبعه . اضاف قائلا :

ـ اتعلمين ما هي الاسباب المؤدية الى هذه الظاهرة في بلادكم ؟

اجابت وهي تنظر في الارض :

ـ اعتقد أنها نفس الاسباب الدافعة الى الاجرام المتزايد باطراد .

ـ هذا صحيح من حيث المبدأ ... ولكن وجود ظروف معينة آنية يدفع احيانا الى هذه الظاهرة ... أليس كذلك ؟

ـ طبعا .. البحث عن حافز جديد مثلا .. فغالبية الرجال والنساء عندنا وصلوا الى درجة عالية من الاشباع والترف ، حيث انهم صاروا لا يعلمون كيف يتابعون حياتهم بنفس الهمة والاندفاع السابق . انهم في بحث متواصل عن دافع جديد .

ـ البحث عن الجديد ... او ضغط الحياة اليومية المتزايد .

قالت :

ـ انني على يقين ان الاسباب واضحة .

هتفت (ياسمين) من باب المقهى « اونكيل » ثم غرقت في الضحك . كانت الصغيرة تقف بسنواتها الست تتطلع بمرح طفولي الى المارة والسيارات في الشارع الرمادي الطويل . طلب من الخادم ان يجلب كأسا اخرى من العصير وكأسين من النبيذ الاحمر . فقد حان موعد عودة أم ياسمين من السوق . كان يعلم انها تحتسي النبيذ الاحمر برغبة قوية .

احتست ليلتها كأسين كبيرين . تجادلا ساعات طويلة . يذكر الآن كيف تابع لغتها السريعة بصعوبة . اغمض عينيه . كان الارهاق في جسده وروحه . ابتعدت عنه كالارنب المذعور ، نامت على الارض . تبين له بعد دقائق ان جذوته السمراء الملتهبة لا زالت باقية ، تطلع الى صورة الرجل المتجهم العاري ، تخلى عن مكانه الدافىء في السرير ، نزل الى الارض جنبها . كانت ابتسامتها تثيره . اغمضت عينيها وهي تقبله ، فارتسمت في وجهه ابتسامة ساخرة . شعر بعينيه الحمراوين المرهقتين تحكانه وتحرقانه . جلسا متقابلين . مرت فترة صمت طويلة ... كان بصره ثابتا في صورة الرجل الطويل العاري . فجأة تمزق الصمت بسؤالها وهي تغطي انفه وفمه بيدها اليمنى . لاحظ انها تتفحص عينيه السوداوين :

ـ عليك ان تذهب ... انك متعب جدا .

سألها والابتسامة الساخرة على فمه الصغير :

ـ ماذا تقول لك قسمات وجهي ؟

ـ فكرت أحيانا انك مجرم .

ـ اتحبين المجرمين ؟

ـــ احب كل الناس .
ـــ غير ممكن .
قبلته في جبهته ثم قالت برفق :
ـــ عليك ان تذهب ... ان الوقت متأخر جدا .
ـــ هل نامت ياسمين ؟
قالت بضجر :
ـــ منذ وقت طويل .
ـــ نسيت تقبيلها .
ـــ غدا .

عند الباب همست في أذنه وهي تقبله قبلة خفيفة :
ـــ انا احبك الى الابد يا اسماعيل .

خرج الى الشارع في تلك الليلة الباردة ، انه الهزيع الاخير من الليل . الشوارع خالية تماما ، الجليد الابيض. عاودته رغبة جنونية مدهشة ان يقطع البحار والوهاد والجبال حتى يصل الى هناك ، الى مدينته الكبيرة النائمة ، يذهب الى (الحضرة) يجلس جوار القبر الذهبي ، يبكي ، يذرف الدموع ، حتى يجف جسده ويستحيل الى ورقة خريف يابسة .

جاء الخادم بالعصير والنبيذ . وضعهما على المنضدة وهو يلقي نظرة غامضة على الرجل الاسمر الغريب في مظهره . تطلع الى وجهه الاحمر الاشيب وهو يقول له « شكرا » . أما الى (ياسمين) ان تأتي اليه . ركضت نحوه وهي تسأله « متى تأتي أمي » ؟

اجابها « قريبا جدا » . رفعت الصغيرة الكأس وهي تضحك وتقول :

ـــ هوخ فاين ... هوخ اونكيل .

بغداد

•

صدر حديثا :

الجبـــل الصغير

مجموعة قصص بقلم

الياس خوري

في خمس لوحات متكاملة ، ترسم مجموعة « الجبل الصغير » ، للكاتب اللبناني الياس خوري ، افق رحلة لكتابة جديدة في القصة .

والحرب او الموت ، كممارسة ابداعية من أجل تغيير العالم ، تنتقل الى موت في الكتابة نفسها وحرب في داخلها ، من أجل تغيير رؤيا العالم الذي يسقط ويعيد خلق نفسه في الثورة .

القصة هي نسيج لفعل تاريخي يمتد في علاقات الكتابة . لذلك تمتد القصة في القصص التي تأتي بعدها او قبلها ، لتشكل عالما متكاملا يحاوله « الجبل الصغير » في بحثه عن الكتابة الجديدة .

منشورات دار الآداب